حاجة الفكر الإسلامي المعاصر إلى الفلسفة

دكتور / سالم مصطفى القريض
عميد كلية الشريعة والقانون
جامعة السابع من أبريل الزاوية ـــ ليبيا

مقدمـــة

يتميز الفكر الإسلامي بخصوصيته، ذلك إن نشاطه الفاعل في عمومه يتمحور حول مصـــدرين أساسيين هما العقل والشرع ، فهو يرتبط بهما ارتباطاً كاملاً ويحرص دائما بحكم تكويـــنه على إن تتشكل معارفه وعلومه وفقا لهما، وهذه الحقيقة التي لا يخالف فيها معظم المسلمين إلا القلة من أولئك الذين وقفوا عند ظاهر النص الدينـــــي ولم يقبلوا أن يتدخل العقـــل فـــيه تحـــليلا وتأويلا فاعتمدوا عليه مصـــدرا سابقـــا في الفهـــم والتحليل واستنباط الأحكام على الشرع، وفي مقدمة هؤلاء المعتزلة والفلاسفة.

ولا يكون أخد العقل المسلم عن هذين المصدرين بتوازن كامل وفي كل الأحوال، فالاتجـــاه السائد بين المسلمين أن تتقدم الشريعة لتكون معيارا لتقييم معارف العقل وعلومه وأن تعمـــل كـــابط لئلا يذهب العقل بعيدا في تحليل النصوص الشرعية والتعمق في التأويل والتعلـــيل، خشـــية المغالاة في هذا الاتجاه والانحراف عن مقاصد الشرع إلى مقاصد الفهم والـــتأويل العقلية، وقد زاد من التمسك بهذا الاتجاه الاحترازي قلة أهل التعليل والتأويل عن غيرهم في المجتمع وهذه خاصية إنسانية.

ونبهنا القرآن الكريم إلى أقسام الناس من حيث قدراتهم العقلية وحددها في ثلاثة وهـــم: ـــ

الخـــواص ، العـــوام ، الجدلـــيون ، وجاء الخطاب القرآني متنوعا بحسب حاجة الخـــواص والعـــوام وأيضا أهل الجدل وهم فئة كثيراً ما يكون لها حضورها الفكري في المجـــتمع، بـــل أن الإنســـان في عمومه يميل بطبعه إلى الجدل، كما قال الله تعالى (وكان الإنسان أكثر شئ جدلا) [(١)] .

وقد جمع القران الكريم هذه الأصناف في قوله تعالى (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظــة الحســنة وجــادلهم بالتي هي أحسن) [٢] ، فالحكمة لأهل العقل الراجح من الخــواص الذيــن يمــيلون إلي التحلــــيل والتعليل والتعمق في إدراك المعاني واستنباط الأحكام،والموعضة للعوام الذين يكتفون في فهمهم بضرب الأمثال والوقــوف عند المعاني القريبة والصور الحسية وهم الكثرة من الناس، أما أهل الجدل فهم يكثرون ويقلون بحسب الــزمان والمكان ، وقد دخل معظم الرسل وأخرهم رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم في الجدل مع كثير من المعاندين خاصة من اليهود، وهذا ما يعرض لمعظم الدعاة أيضا.

ومــا يمكننا التأكيد عليه كخلاصة لما تقدم أن هذا التنوع والاختلاف في الطرق والأساليب وهذا التفاوت في مستويات الفهم والإدراك خاصية إنسانية، وقد قرر القران هذه الحقيقة وذكر أن الله خلق الإنسان متنوعا مختلفا في تفكيره لحكمة إلهية ، لعل مقصده فــيها أن يقوم كل إنســــان بدوره في الحيــــاة وفقا لقدراته العقلية والجسمية فتتنوع اتجاهات الاهتمام بهذا الكون فيعمر في كل أجزاءه ويصير الإنسان بالفعل خليفــة لله في أرضــه، يقول الله تعالى (وهو الذي جعلكم خلائف في الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما أتاكم) [٣]، وقال تعالى (هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلون إنما يتذكر أولو الألباب) [٤] قال تعالى (نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا) [٥] ، وقال تعالى (ولو شاء ربك لجعل الناس امة واحدة ولا يزالون مختلفين الأمن رحم ربك ولذلك خلقهم) [٦] ، فلكل إنســان مــنهجه وأسلوبه وقدراته العقلية التي يسخرها بحسب علمه وفهمه وقناعا ته في خدمــة اتجاهه في الحياة شرط أن يكون ذلك كله وفق أوامر الشرع الصريحة والواضحة الــتي يتأســس عليــها ،فلا خلاف بين المسلمين على ثوابت الشرع وأصوله وإنما على الفروع ومواضع الاجتهاد .

وموضوعات الاجتهاد هذه تكون خادمة للعلم وآخذة بطرقه وأساليبه وصولا إلى أفضــلها وأدقها في خدمة غرضها العلمي والشرعي، وهذا موضع الخلاف المشروع، وقد تطــورت العقلية الإسلامية وفقا لهذا المفهوم ،وتطورت معها علومها الدينية والدنيوية ،

واتجه العقل الإسلامي في خضم تأسيسه لهذه العلوم إلى تطوير المناهج الفاعلة في ضبط طرق النظر وتحسين أساليب البحث، وقصد بعض من أهله ضمن ذلك إلى الاستعانة بالفلسفة التي استطاعت بدقة مصلحاتها ورصانة طرقها الاستدلالية وعمق أساليبها التحليلية أن تكون مقنعة لبعض أهل النظر العقلي الذين وجدوا فيها وسيلة لدعم طرقهم وأساليبهم بما يحقق أفضل النتائج.

وإذا كان السبق للأخذ بالفلسفة لأهل النظر العقلي المجرد في الإسلام وهم ممن عرفوا بعلماء الكلام وفلاسفة الإسلام فانه قد اتسع هذا بعد النصف الثاني من القرن الخامس الهجري ليشمل علم الفقه ويدخل بشكل أوسع في مجالات علم الكلام الأشعري، لياتي ابن رشد وهو من ابرز فقهاء وفلاسفة المسلمين ليبرهن على أهمية الفلسفة للشريعة وان الشريعة تحث على الأخذ بالفلسفة والاستعانة بها طريقاً للنظر والتفكير والتدبير وبمنطقها منهجا في الاستدلال واستنباط الأحكام، وذلك أن الفلسفة بمباحثها أثبتت إنها أكثر أدوات النظر العقلي قدرة في هذا المجال، والشئ الذي يحذرنا منه فلاسفة الإسلام في هذا الاتجاه أن نحتاط من أن يشتغل بهذا غير أهله وان يكون المنهج المتبع فيه انتقائيا فيؤخذ بما يتلائم وخصوصيتنا الدينية ويترك الذي لا يتلائم وهذه الخصوصية ، وقد قام الغزالي وابن رشد بعملية فرز لمباحث الفلسفة لها أهميتها في هذا المجال ، وكان لهذا كله أثره بشكل أو بأخر في الدفع بالفلسفة وخاصة المنطق لأن تحتل مكانتها ضمن العلوم وأساليب النظر الإسلامية رغما عن بعض المواقف المعارضة لهذه الاتجاهات الفلسفية.

ويشعر المفكر المسلم المعاصر بحاجته الملحة إلى تقوية قدراته العقلية أكثر بما يكفل له الفاعلية المطلوبة نظرياً وعملياً ويضمن تحقيق فكر وعلوم إسلامية تكون قادرة على إيجاد الإنسان المدرك لعلوم العقل والنقل المفيد لكل منهما بالأخر والمرتقي بهما إلى الأفضل دائما، ومن هنا تتضح الإشكالية التي يستشعرها كل مفكر مسلم معاصر والتي تتحدد في البحث عن الكيفية في الوصول إلى هذه الغاية .

وإذا تمعن المفكر المسلم في العالم المتقدم من حوله وجد أن أسباب نهضته وتقدمه واستمراريته في مسيرته العلمية المعاصرة يرجع في أساسه إلى الفلسفة بتياراتها الفكرية

واتجاهاتها المنهجية وهذه حقيقة واضحة ، فبفضل الفلسفة كان خروج الغرب من ركوده وكـــان بناءه لنهضته وعلومه وعن طريقها يؤسس نفســـه في مواجهة الأخر، وقد فطن الغـــرب المعاصر لأهمية الفلسفة لذلك اتجه في معظم جامعاته إلى تدريس مباحثها وفقـــا لتخصصـــات كـــل علم واتجاهاته البحثية، وإذا كان المفكرون المسلمون الأوائل من أهل الـــنظر العقلي أدركوا هذه الأهمية وأقدموا عليها وأفادوا منها فما أحوج الفكر الإسلامي المعاصر إلى الإقتداء بهذا الاتجاه وان يستعين بالفلسفة منهجاً وأسلوباً في الحوار والخطاب فـــبها تقوى الحجة وتتعمق الفكرة وتضبط طرق الاستدلال ، وهذا مطلب زادت الحاجة إليه في هذا العصر المتميز بسيطرة العقل والعلم المادي .

وشـــعور مني بأهمية الاستعانة بمباحث الفلسفة المفيدة للعلوم الإسلامية والمساعدة عـــلى حـــل إشكالات العقـــل الإسلامي المعاصر قصدت إلى الخوض في هذا الموضوع الحيوي ، ولفت النظر إليه من خلال هذا العمل الذي أنا بصدده والذي يأتي تحت عنوان حاجة الفكر الإسلامي المعاصر إلى الفلسفة .

وعـــندما نذكـــر الفلســـفة الإسلامية فإننا نقصد بها معناها الواسع الذي يشمل بالإضـــافة إلى الفلسفة البحته علم الكلام والتصرف وما يتضمنه كل مجال من موضوعات ومباحث خاصة به .

ونظـــراً لما يتطلبه الموضوع من عرض للآراء والأقوال المؤيدة أو المعارضة لأهمية الفلســـفة للفكـــر الإسلامي ، لذلك سيكون المنهج المتبع فيه عرض النصوص ومقابلتها ببعضها وصولاً إلى استنباط الأحكام وفقاً للموضوعات التالية:

استجابة الفكر الإسلامي للفلسفة ، التعريف بمباحث الفلسفة الإسلامية ، موقف المبطلين للفلســـفة المعارضين لمباحثها ، دفاع الفلاسفة المسلمين عن الفلسفة ، التفاعل بين العقل والنقل الإسلامي ، مكانة الفلسفة في الحضارة الإنسانية .

التعريف بمباحث الفلسفة الإسلامية : ـــ

فـــإذا وقفـــنا عـــند تعريف الفارابي للفلسفة نجد أنفسنا أمام تحديد لموضوعاتها وماهيـــتها، فهي(العلم بالموجودات بما هي موجودة) [٧]، ذلك أن(القول والاعتقاد إنما

يكون صادقاً متى كان للموجود المعبر عنه مطابقاً)[٨]، ومادام الأمر كذلك فان للفلسفة مدخل في كل العلوم ، فضبط اللفظ واستقصاء المعنى هما وسيلة العلوم في المعرفة بجميع أنواعها وفروعها ، وذلك هو أحد مهام الفلسفة الذي يحددها الفارابي والذي وفقا لتعريفه يكون حدها الصحيح مطابقا لصناعتها، ويتبين من هذا استقراء جزئيات هذه الصناعة حيث أن موضوعات العلوم وموادها لا تخلو من أن تكون إما إلهية ، وإما طبيعية،وإما منطقية، وإما رياضية، وإما سياسية ، وصناعة الفلسفة هي المستنبطة لهذه والمخرجة لها حتى أنه لا يوجد شئ من موجودات العالم إلا وللفلسفة فيه مدخل، وعليه غرض، ومنه علم بمقدار الطاقة الانسية، وكل هذه الموضوعات يجملها قسمي العلم النظري والعملي، حيث يتجه اهتمام العلم النظري بالموجودات كما هي موجودة، بينما يهتم العلم العملي بالأحوال والأفعال الموجودة فينا والصادرة عنا [٩].

ويقسم ابن سينا العلوم النظرية إلى أربعة :ـ

العلم الطبيعي ، والعلم الرياضي، والعلم الإلهي، والعلم الكلي، وتتجه هذه للبحث فيما هو كائن أو مستخلص مما هو كائن، أما العلوم العملية فتتجه للبحث فيما يجب أن يكون عليه الإنسان كفرد وككائن اجتماعي لتشمل بذلك الأخلاق الفردية والجمعية وعلم السياسة المدنية، وتهتم جميعا بما يجب أن يكون عليه الإنسان في سلوكه الباطني والظاهري حتى يكون سعيدًا في الدنيا والآخرة وهذا ما ينظمه علم الأخلاق، أما علم السياسة فانه ينظم حياة الإنسان مع غيره ومشاركته له وتعامله معه بطرق قانونية وتشريعات سياسية.[١٠]

ويضيف الفلاسفة المسلمون إلى هذه الأقسام قسماً هاماً وهو علم المنطق الذي هو آلة للعلوم جميعا ويهتم بوضع أسس الاستدلال وقوانينه وأساليبه ، الأمر الذي لا غنى لعلم عنه، ويعتبرونه(علما منبها على الأصول التي يحتاج إليها كل من يقتنص المجهول من المعلوم باستعمال للعلوم على نحو وجهة يكون ذلك النحو وتلك الجهة مؤديا بالباحث إلى الإحاطة بالمجهول فيكون هذا العلم مشيرا إلى جميع الأنحاء والجهات التي تنقل الذهن من المعلوم إلى المجهول)[١١]، فالمنطق هو الآلة الضرورية في عمليتي الاستقراء والاستنباط للأحكام في كل العلوم .

ويجمــل الفــارابي مهمة هذا العلم في أنه مصدر القوانين التي من شأنها أن تقوّم العقــل وتســدد الإنسان نحو طريق الصواب ونحو الحق في كل ما يمكن أن يغلط فيه من المعقــولات ، ذلــك أن البحث في هذه المعقولات ينقسم إلى المعلوم بذاته وهو ما تعرفه النفس بالفطرة ويتمثل في البديهيات والأوليات الذهنية التي لا مجال للخطأ فيها عند ذوي العقــول ، أما ما عداها مما يحتاج إلى تأمل ونظر واستدلال فأنها موضع للخطأ والانحراف عن الصواب في معرفتها ، ولذلك فان نظر الإنسان فيها يحتاج إلى المنطق وقوانينه ضمانا للســداد [١٢] ، وعليه يعتبر الفلاسفة المنطق الآلة التي إن استخدمت بالطريقة الصحيحة فمــن شــأنها عندئذ أن تعصم الذهن من الخطأ في استدلالاته فهو علم (بيّن من غرضه عظــيم غنائه وذلك في كل ما نلتمس تصحيحه عند أنفسنا وفيما نلتمس تصحيحه عند غيرنا وفيما يلتمس غيرنا تصحيحه عندنا)[١٣]، فالمنطق ضروري لكل من يلتمس السلامة في العلم والمعرفة وكل من جهل المنطق يكثر انحرافه وخطأه من حيث لا يدري .

وكمــا أن المــنطق آلــة للعــلم فانــه أيضاً وسيلة لبناء الحجة ، وان جهلنا به يعــني أنــنا نفــتقد تلــك الآلــة والوســيلة ونضيع النتيجة[١٤]، ولذلك كله جاءت الدعــوة إلى ضــرورة الأخــذ بالمــنطق باعتــباره معياراً للعلم ومحكاً للنظر وفيصلا في التمييز بين الحق والباطل[١٥].

إن الفلســفة وفقــا لهــذه المفاهيم لا تختص بما عرفت به عند الغربيين (اليونان والمحدثين) وإنما تتمحور وفقا لثقافة وعلوم واتجاهات النظر لكل حضارة ، فعمق التحليل والتفســير وضــبط المناهج والطرق في الاستدلال وتحديد المصطلحات كل هذا اتجاه عام يتشكل وفقا لخصوصيات الثقافة والعلوم في كل حضارة وهذا تماما ما تضطلع به الفلسفة ،وهــذا ما دفع بابن سينا إلى محاولة وضع منطق خاص بالمشرقيين ، وهو ما دفع بفلاسفة الإســلام إلى الاتجاه للتوفيق بين اتجاهات فلسفة أرسطو والفكر الإسلامي وثوابته ، وهو مــا دفع بالغزالي إلى أسلمة مصطلحات علم المنطق للاستفادة منها في العلوم الإسلامية ، وتصريحه بأن هذا العلم ليس خاصاً بالفلاسفة ولكنه في مضمونه هو ما يتبعه علماء الكلام والــنحويون وغيرهم من أهل النظر وان اختلفت التسميات ، وهذا ما اتجهت إلى تأكيده

جهــود الفلاسفة في كل عصر، فالأوربيون المحدثون والمعاصرون أضافوا وطوروا الفلسفة في مباحثها وموضوعاتها واتجاهاتها بما يتمشى وظروف العصر ومتطلباته.

موقف المبطلين للفلسفة المعارضين لمباحثها :ـــ

للفلســفة وضعا خاصا في المجتمع الإسلامي ، فإذا كان علم الكلام – الذي هو اقرب العلوم إلى الفلسفة لاعتماده النظر العقلي المجرد أسلوباً في معالجة موضوعاته – لاقى قبولا إلى حد أوسع مما لاقته الفلسفة وذلك لأنه يهدف إلى الدفاع عن العقيدة الإسلامية ضـد المبـتدعة فيها ، فقد نظر إلى الفلسفة على أنها تضع حلولا لمسائل حسم الأمر فيها الديـن الاسلامى ولا حاجة بعد ذلك لما تطرحه من حلول لها ، و أن نظريات الفلاسفة وأرائهم ما تعمل إلا على التشويش على عقيدة المعتقد.

أمـا المنطق الارسطي الذي لاقى على وجه الخصوص نوعا من القبول عند بعض المفكـرين المسـلمين الأوائـل ونظر إليه على انه يضع أسساً تتعلق بالمنهج كان الفكر الإسـلامي في حاجة إليها آنذاك، فانه لم يسلم هو الآخر من النقد،حتى أن الشافعي رحمه الله يذهب إلى أنه (ما جهل الناس ولا اختلفوا إلا لتركهم لسان العرب وميلهم إلى لسان ارسطاطالس)(١٦) ، وقد ذهب ابن الصلاح إلى حد الفتوى بتحريم المنطق معتمدا في ذلك عـلى أنـه (لـيس الاشتغال بتعلمه مما أباحه الشارع ولا استباحه أحد من الصحابة و الـتابعين والائمة المجتهدين)(١٧)، كما انتقده ابن تيمية ، وألّف في (الرد على المنطقيين) وفي (نقـض المـنطق) وفي (نصيحة أهل الإيمان في الرد على منطق اليونان)، وعلى هذا المسار كان موقف الرافضين للمنطق والفلسفة على العموم .

وقد هاجم الغزالي (الذي يوصف بالتردد في مواقفه الفكرية) الفلسفة الالهيه عند الفلاســفة وذهب إلى حد اتهامهم بالكفر لقولهم في (حشر الأجساد ، وحدوث العالم، وعــلم الله) على غير ما جاء في العقيــدة الإسلامية حسب تقييمه(١٨)، ولكن رغم هذا فــان الغزالي تأثر تأثراً واضحا بالفلسفة وأساليبها واتجه إلى القبول ببقية علومها بشروط واضحة في كتابه تهافت الفلاسفة ، أما موقفه من المنطق فيكاد يكون مطابقاً لما ذهب إليه الفلاســفة في مــنطقهم مع تغيير في بعض المصطلحات ، إذ انه اعتبر هذا المنطق أساساً

ومقدمة لابد منها لكل نظر وعلم ، لذلك عمل على الاستعانة بطرقه الاستدلالية مع تطويعه بما يلائم العلوم الإسلامية في شكلها لفظاً ومصطلحاً، كما فعله في كتبه معيار العلم ومحك النظر والقسطاس المستقيم .

دفاع الفلاسفة المسلمين على الفلسفة :ـــ

علمنا كيف اتجهت العلوم الاسلامية اتجاها دينيا سواء كان ذلك بشكل مباشر أو غير مباشر فكلها فاعلة من اجل النص الديني شكلا ومضمونا استدلالا واستنباطا ، وبالإضافة إلى جهود المسلمين الواضحة لإيجاد أفضل المناهج والأساليب التي طبقوها في علومهم ، فقد وجدت بعض الاتجاهات الفكرية الاسلامية فيما اتصلت به من علوم وثقافات أخرى مساعدا لها على ما هي بصدده من عمل فكري، الأمر الذي أدى إلى المساهمة في تشكيل الأنماط الفكرية المتعددة التي أضافت الكثير إلى مباحث العقل الإسلامي واتجاهاته .

وتأتي الفلسفة في مقدمة ما أخذ به العقل الإسلامي عن الفكر الأجنبي فقد وجد من استمالته الفلسفة بنظرياتها الإلهية والطبيعية والرياضية والمنطقية والأخلاقية فاخذ بها وحذى حذوها إلا في القليل اليسير[١٩]، فكان الفارابي وابن سينا وابن رشد من أشهر متفلسفة الإسلام المتأثرين بالفلسفة اليونانية لما وجدوه فيها من موضوعات نظرية وعمليه وطرق منهجية استدلالية تلبي حاجة العقل وتدعم اتجاهاته البحثيه ، وفي كل الأحوال فإن (الإنسان إذا أراد أن يتعلم علما من هذه العلوم وينظر فيه علِمَ على ماذا يقدم وفي ماذا ينظر وأي شئ سيفيد بنظره وما غناء ذلك وأي فضيلة تنال به ، ليكون إقدامه على ما يقدم عليه من العلوم على معرفة وبصيرة لا على عمى وغرور)[٢٠] ، فقد رأى فلاسفة الإسلام بأن الفلسفة تخدم هذه الأغراض الموضوعية والغائية وتحقق فضائلا نظرية وعملية لا يتسنى تحقيقها إلا بها ولذلك كان أخذهم بها وإقدامهم عليها ظاهرا منذ القرن الثالث الهجري مع فيلسوف العرب أبو يوسف بن يعقوب بن إسحاق الكندي .

لقد كان لما تميزت به الفلسفة من دقة في ضبط حدود موضوعاتها ورصانة في وضع مناهجها وترتيب أساليبها أثره على العقول ، مما جعلها مقنعة لكل اتجاه عقلي سليم

ولكل موقف تأملي وذوقي متفتح ، ذلك أنها المجال المناسب الذي يحقق فيه العقل ذاته كعقل بالفعل يسمو به الإنسان سائر الكائنات المادية والحيوانية ، لذلك كانت الفلسفة عنوانا للحضارة في كل زمان ، فانتشرت عند الكلدانيين وهم أهل العراق ، ثم صارت إلى أهل مصر ثم أنتقلت إلى اليونانيين الذين اشتهروا بها ليستلمها بعد ذلك السريانيون ثم من بعدهم العرب ،وقد كانت العبارة عن جميع ما تحتوي عليه باللسان اليوناني باعتباره اللسان المؤسس للفلسفة بالمعنى الاصطلاحي ، ثم صارت باللسان السرياني المتأثر بالأصول اليونانية، ثم باللسان العربي[٢١]، الذي وأن تأثر أهله بتلك الأصول إلا أنهم بذلوا جهداً كبيراً في دراسة ذلك الموروث وتمحيصه واقتناء ما يلائم منه عقيدتهم وثقافتهم ومحاولة التوفيق بين المخالف فيها وهذه العقيدة، وقد عرفها المسلمون بالحكمة والمقتني لها بالحكيم أو المحب أو المؤثر للحكمة سيراً على دلالة مصطلحها عند اليونانيين[٢٢]، وتبعا لهذا الاصطلاح الذي له دلالته العقلية والنفسية فان مهمة الفلسفة والحكمة الرفع من قدرات العقل وتعميق مباحثه النظرية والعملية ليس فقط عند الفلاسفة أو الحكماء كأفراد وإنما أيضاً في المجتمع ككل عملا منهم على استنهاض العقول وإزالة الغشاوة عنها، ومتى استطاع الحكماء جعل (العلوم النظرية مخيلة في نفوس الجمهور ووقع التصديق بما تخيل منها وحصلت الأشياء العملية بشرائطها التي بها وجودها ممكنة في نفوسهم واستولت عليها وصارت عزائمهم لا تنهضهم نحو فعل شئ أخر غيرها ، فقد حصلت الأشياء النظرية والعملية تلك)[٢٣]،فالمهمة الاجتماعية للفلسفة والفيلسوف هي حث الهمم نحو مجتمع فاضل تسمو فيه الأنفس روحيا وعقليا وصولا إلى المدينة الفاضلة على رأي الفارابي أو تحقيقا للشفاء والنجاة على رأي أبن سينا أو العلم بالكيفية التي تكون بها الفلسفة عوننا ونصرا للشريعة على رأي أبن سينا .

ويظهر جليا من مؤلفات الفلاسفة المسلمين مدى ميلهم إلى الفلسفة وحثهم على الأخذ بها لما وجدوه فيها من اتجاهات تلبي حاجة الإنسان النظرية والعملية والمنهجية ، يقول الفارابي : إن الحكمة النظرية والعملية متى حصلت في نفس الجمهور وصارت فعلا لهم وكانت أيضاً في نفس المشرع للقوانين في المجتمع بصيرة يقينية وملكة له فإنها تكون عندها ملة متبعة فيه ، وعندها تتحقق الفلسفة في هذا المجتمع [٢٤]، وهذا تأكيد لما ذكرناه

من أن الفلسفة تكتسب خصوصيتها وفقا لملة المجتمع وثقافته التي يتفلسف في إطارها.

وقد وجد ابن سينا أيضاً في الفلسفة طريقاً للحكمة والسعادة بما تكفله من أساليب التعمق في النظر والتتبع الدقيق لخفايا الأمور استدلالا واستنباطاً وضبطا للمفاهيم على ماصدقاتها، الأمر الذي لم يرض عنه بعض الناكرين لتجديدات العقل الذين يصفهم ابن سينا بأنهم(عاري الفهم كأنهم خشب مسندة يرون التعمق في النظر بدعة ومخالفة المشهور ضلالة كأنهم الحنابلة في كتب الحديث)(٢٥) ، ذلك أن الفلسفة في نظر ابن سينا تشتمل على (ما لابد من معرفته لمن يؤثر أن يتميز عن العامة وينحاز إلى الخاصة ويكون له بالأصول الحكمية احاطة) (٢٦)، فان كانت للفلسفة وظيفتها التي علمناها إلا أنها في ذاتها تظل من شأن الخواص من أهل الحكمة .

وبناء على الذي تقدم فإننا نقف عند ابن سينا لإجمال مهمة الفلسفة وأهميتها في قوله أن(الحكمة هي استكمال النفس الإنسانية بتصور الأمور والتصديق بالحقائق النظرية والعملية على قدر الطاقة البشرية ، والحكمة المتعلقة بالأمور النظرية التي إلينا أن نعلمها وليس أن نعملها تسمى حكمة نظرية، والحكمة المتعلقة بالأمور العملية التي إلينا أن نعلمها ونعملها تسمى حكمة عملية، وكل واحدة من الحكمتين تنحصر في أقسام ثلاثة ، فأقسام الحكمة العملية : حكمة مدنية ، وحكمة مترلية، وحكمة خلقية، ومبدأ هذه الثلاثة مستفاد من جهة الشريعة الإلهية ، وكمالات حدودها تستبين بالشريعة الإلهية، وتتصرف فيها بعد ذلك القوة النظرية من البشر بمعرفة القوانين العملية منهم وباستعمال تلك القوانين في الجزئيات... وأما الحكمة النظرية فأقسامها ثلاثة : حكمة تتعلق بما في الحركة والتغير وتسمى حكمة طبيعية، وحكمة تتعلق بما من شأنه أن يجرده الذهن عن التغير وان كان وجوده مخالطا للتغير ويسمى حكمة رياضية ، وحكمة تتعلق بما وجوده مستغن عن مخالطة التغير فلا يخالطه أصلا وان خالطه فبالعرض، لان ذاته مفتقرة في تحقيق الوجود إليه، وهي الفلسفة الأولية ، والفلسفة الإلهية جزء منها وهي معرفة الربوبية. ومبادئ هذه الأقسام التي للفلسفة النظرية مستفاد من أرباب الملة الإلهية على سبيل التنبيه ومتصرف على تحصيلها بالكمال بالقوة العقلية على سبيل الحجة ، ومن أوتي استكمال نفسه بها

تــين الحكمــتين والعمــل على ذلك باحداهما فقد أوتي خيراً كثيراً)[٢٧]، فالفلسفة هي الطريق إلى بلوغ النفس أرقى درجات اليقين الممكنة في تفاعل بين العقل والشريعة الإلهية.

وهــذا ما أكد عليه ابن رشد الفقيه الفيلسوف عند بيانه شرعية الأخذ بالفلسفة وأهميــتها في المجتمع الإسلامي وكيف تكون العلاقة متكاملة بينها وبين الشريعة ، قائلا (فــان الغرض من هذا القول، أن نفحص على جهة النظر الشرعي ، هل النظر في الفلسفة وعلــوم المنطق مباح بالشرع أم محضور أم مأمور به، إما على جهة الندب وإما على جهة الوجــوب ؟ فــنقول : إن كــان فعل الفلسفة ليس شيئا أكثر من النظر في الموجودات، واعتــبارها مــن جهــة دلالتها على الصانع ــ اعني من جهة ما هي مصنوعات ــ فان الموجــودات إنمــا تدل على الصانع لمعرفة صنعتها وانه كلما كانت المعرفة بالصانع أتم ، وكــان الشرع قد ندب إلى اعتبار الموجودات وحث على ذلك فبين أن ما يدل عليه هذا الاســم إما واجب بالشرع وإما مندوب إليه) [٢٨]، فابن رشد يعتبر النظر العقلي الذي يحث عليه الشرع هو الفلسفة لذلك كانت مأموراً بها شرعا .

ويــبرهن أبن رشد في معرض رده على المعارضين للفلسفة على أن معظم مباحث الفلاســفة لا تخالف الشرع ، فالاستدلال والاستنباط هما طريق العقل في النظر والاعتبار الــذي يحثنا الشرع عليه وصولا إلى البرهان ، وما الطريق الأمثل لذلك الاستدلال وصولا إلى هــذا البرهان إلا طريق القياس المنطقي ، فإذا قيل أن هذا مالم يعرفه الصحابة في صدر الإســلام ، فانــه يقــال لهــم أن ما أستجد من العلوم وما اضيف إلى علوم السلف من مصطلحات وطرق كثير، وذلك شأن العقل متطور على الدوام ، ويأتي علم الفقه وأصوله في مقدمة العلوم التي شهدت تطورات وإضافات لم تكن معروفة عند أولئك الأوائل ، ولما كان عسيرا أو غير ممكن أن يقف فرد على جميع شروط النظر والقياس العقلي وصولا إلى الاستدلال السليم، لذلك وجب الاستعانة بالآخرين متى توفرت في هذه الاستعانة شروط الصــحة، ولا يضر إن كان الأخر من أهل الملل الأخرى، فان الآلة التي تصح بها التذكية لــيس يعتــبر في التذكية بها كونها آلة المشارك لنا في الملة أو غير المشارك إذا توفرت فيها شروط الصحة، ويعني ابن رشد بغير المشارك لنا في الملة القدماء من فلاسفة اليونان [٢٩].

لقــد كــان لقدماء الفلاسفة جهدا مهما اعترف لهم به معظم علماء العالم، وقد ســبق فلاسفة الإسلام غيرهم في الاعتراف بهذا السبق الفلسفي اليوناني، بل وعملوا على الإفــادة منه بما يتمشى والاتجاه العقدي الإسلامي السائد ، وقد وجدوا فيه معينا لهم فيما هم بصدده من نظر عقلي وطرق منهجية وجدل مع أهل الآراء المخالفة والأفكار المعادية للإســلام ، وفي ذلــك يقول أبن رشد(وإذا كان هذا هكذا فقد يجب علينا إن ألفينا لمن تقدمنا من الأمم السابقة نظراً في الموجودات واعتباراً لها بحسب ما اقتضته شرائط البرهان ، أن نــنظر في الذي قالوه من ذلك ، وما أثبتوه في كتبهم ، فما كان منها موافقا للحق قبلــناه مــنهم وســررنا به وشكرناهم عليه ، وما كان منها غير موافق للحق نبهنا عليه وحذرنــا منه وعذرناهم ، فقد تبين من هذا أن النظر في كتب القدماء واجب بالشرع أن كــان مغزاهم في كتبهم ومقصدهم هو المقصد الذي حثنا الشرع عليه ، وأن من نهى عن النظر فيها من كان أهلا للنظر فيها وهو الذي جمع بين أمرين : أحداهما : ذكاء الفطرة ، والــثاني: العدالة الشرعية والفَضيلة الخلقية ، فقد صد الناس عن الباب الذي دعا الشرع مــنه الــناس إلى معرفة الله ،وهو باب النظر المؤدي إلى معرفته حق المعرفة ، وذلك غاية الجهل والبعد عن الله) (٣٠).

وهكذا كان المعيار الديني محدداً للمواقف من علوم الأوائل وكل العلوم المستجدة عــلى ســاحة الفكــر الإسلامي(*)، وأبن رشد يبرهن على أن الشرع يحث على الأخذ بالفلسفة وأنها خادمة للشرع ، ولكنه يحذر من انه قد يحدث أن ينحرف أحد العلماء عن مقصد العلم الذي ينظر فيه وذلك ليس عيباً في العلم ذاته، وإنما فيمن ضل الصواب فيه ، وقــد حــدث مثل هذا عند بعض الفلاسفة ، لذلك وكما يقول أبن رشد (ليس يلزم إن غــوى غاو بالنظر فيها ، وزل زال إما من قبل نقص فطرته ، أومن قبل سوء ترتيب نظره فيها أو من قبل غلبة شهواته عليه أو أنه لم يجد معلما يرشده إلى فهم ما فيها، أو من قبل اجــتماع هــذه الأسباب فيه أو أكثر من واحد منها، أن نمنعها عن الذي هو أهل للنظر فيها، فان هذا النحو من الضرر الداخل من قبلها هو شئ لحقها بالعرض لا بالذات، وليس يجــب فــيما كان نافعاً بطباعه وذاته أن يترك لمكان مضرة موجودة فيه بالعرض) (٣١)،

ويخلص أبن رشد إلى أن الفلسفة تبحث عن الحق وتطلبه وما تدعو إليه الشريعة هو الحق، و(الحق لا يضاد الحق بل يوافقه ويشهد له) [٣٢]، وعليه فان الفلسفة لا تضاد الحق الذي هو الشريعة الإلهية بل توافقها وتناصرها بطرقها الاستدلالية التأملية العقلية ، لذلك كان إتباع طرقها السليمة والأخذ بأساليبها القويمة المؤدية إلى الحق واجبا شرعاً .

يقـــول ابوالحســـن محمد بن يوسف ألعامري (ت / ٣٨١ هـــ) بأن (العلوم الحكـــيمة قد طعن عليها قوم من الحشوية ، وزعموا أنها مضادة للعلوم الدينية ، وأن من مـــال إليها وعنى بدراستها فقد خسر الدنيا والآخرة ، قالوا وليست هي إلا ألفاظا هائلة وألقابا مزخرفة زينت بمعاني ملفقة لينخدع بها الجاهل الغر ويولع بها المتطرف الغمر ؟

وليس الأمر كذلك، بل توجد في أصولها وفروعها عقائد موافقة للعقل الصريح، حسب ما توجد العلوم الملية، ومعلوم أن الذي حققه البرهان وأوجبه العقل لن يكون بينه وبـــين مـــا يوجبه الدين الحق مدافعة ولا عناد[٣٣]،فاتجاه الحشوية الذين يقفون عند ظاهر الألفاظ دون الغوص في المعاني يخالف الفلسفة التي تعنى بالتعمق في تتبع المعنى وبذل الجهد في استنباط الأحكام الكامنة وراء الظاهر .

إن الفلســـفة ورغم بعض المواقف المضادة قد انتشرت في المجتمع الإسلامي ووجدت لهـــا أنصـــارها من العقلانيين الذين يدركون أن الحقيقة في المعاني وليست في الألفاظ ، وأن الاســـتدلال أســـاس العـــلم بالمجهول ، بل وقد اختلطت مناهجها ومصطلحاتها ببعض العلوم الاســـلامية مثل علم الكلام وعلم أصول الفقه [٣٤]، ولكن رغم هذه الأهمية للفلسفة في صقل الذهـــن والسمو به (ليكن الناظر فيها متحررا جهده من معاطبها ، وليكن نظر من ينظر فيها بعد الامتلاء من الشرعيات والإطلاع على التفسير والفقه، ولا يكبّن أحد عليها وهو خلو من علـــوم الملّة فقلّ أن يسلم لذلك من معاطبها) [٣٥]، فإذا لم تسترشد الفلسفة (العقل) بالشرع قـــد تخطئ الصواب من دون أن تعلم ، ولا يصل إلى إدراك أوجه الاتصال بينها وبين الشرع إلا أهلها ، كما يحذرنا أبن رشد من أن تكون الفلسفة لغير أهلها ، كما يحذرنا الغزالي من أن يكون علم الكلام وهو العلم العقلي الذي على شاكلة الفلسفة لغير أهله .

لقـــد أفـــادت الفلســـفة بدقة مصطلحاتها ورصانة قوانين وطرق منطقها العلوم

الإســـلامية، لذلك فرضت نفسها على ساحة الفكر الإسلامي بما في ذلك الفكر الديني، فـــإذا كـــان علم الفقه وأصوله الذي هو أكثر العلوم الاسلامية شرعية أفاد من الفلسفة، خاصة مع الغزالي وتابعيه ناهيك عن علوم النظر العقلي مثل علم الكلام والعلوم التجريبية، فـــان هـــذه العلوم وجدت في الفلسفة سنداً لها يدعم اتجاهاتها في طرق الاستدلال وفنون الخطـــاب، يقـــول ابن خلدون :(وإذا اعتبرنا النظر المنطقي كان في الغالب أشبه بالقياس المغالطي والسوفسطائي إلا أن صور الأدلة والأقيسة فيه محفوظة مراعاة تتحرى فيها طرق الاستدلال كما ينبغي، وهذا العميدى ـــ هو أول من كتب فيها ونسيت الطريقة إليه ـــ وضـــع الكـــتاب المسمى بالإرشاد مختصرا وتبعه من بعده من المتأخرين كالنسفي وغيره، جاءوا على أثره وسلكوا مسلكه، وكثرت في الطريقة التآليف) [٣٦].

وجاء في مقدمة كتاب المستصفى في علم الأصول المخصصة لعلم المنطق ما نصه (نذكر في هذه المقدمة مدارك العقول و انحصارها في الحدّ والبرهان ، ونذكر شرط الحد الحقيقي وأقسامها على منهاج أوجز مما ذكرناه في كتاب محك النظر وكتاب معيار العلم، وليســـت هـــذه المقدمة من جملة علم الأصول ولا من مقدماته الخاصة به بل هي مقدمة العلـــوم كـــلها ، ومن لا يحيط بها فلا ثقة له بعلومه أصلا) [٣٧]، وذلك أن (النظر في الفقهـــيات لا يباين النظر في العقليات في ترتيبه وشروطه وعياره ، بل في مآخذ المقدمات فقط) [٣٨]، وحدث مثل هذا الاتصال بين الفلسفة وعلم الكلام بسبب اتجاه الغزالي ومن تـــبعه إلى دمـــج الفلســـفة بهذا العلم أيضاً إلى درجة أن (التبست مسائل الكلام بمسائل الفلســـفة بحيـــث لا يتمـــيز أحد الفنين من ألآخر) [٣٩]، فإذا كان علم أصول الفقه قد اســـتعان في طرقه الاستدلالية بمنطق الفلاسفة ، فإن الأمر في علم الكلام لم يقف عند هذا الحد وإنما تجاوزه إلى إتباع موضوعات الفلسفة ومسائلها التي تهتم بدراستها ، الأمر الذي أدى إلى اختلاط كثير من مباحثها بمباحث الكلاميين

التفاعل بين العقل والنقل الإسلامي :

وقفنا على لمحات من جهد حكماء الإسلام في تحديد أهمية الفلسفة للفرد والمجتمع خاصـــة إذا تعاونـــت مـــع الشريعة ، وعلى رأي الاشاعره ومن بعدهم أبن رشد تكون

الشـــريعة هادية للعقل والعقل خادما للشرع في تفاعل بينهما دون إفراط من احدهما على حســـاب الآخـــر أو تفريط ، فالشريعة في حاجة للعقل لتحليل الكلي وتأويل المتشابه ، وللاســـتدلال والمقارنـــة والتركيب وصولا إلى استنباط الأحكام ، وقد استعان بعضهم بالعقل الفلسفي وطرقه المنطقية وقوانينه الفكرية ، وبمصطلحات الفلسفة واتجاهاتها التأملية وأساليبها النظرية ، فاتخذت بذلك أداة للعقل في التحليل والغوص في المعاني واستكشاف الـــباطن وصولا إلى إدراك الصواب وبعدا عن انحرافات الوهم والخيال ويكون النقل هاديا مسـددا للعقـــل ، وكمـــا يقول ابن سينا : (لا يجوز أن يترك الناس وأرائهم في ذلك فيخـــتلفون ، ويـــرى كل منهم ماله عدلاً وما عليه ظلماً) (٤٠)،وكما يقول الفارابي أن (الفضـــيلة الخلقـــية لا تفارق الفضيلة الفكرية، وكان وجودهما معاً)(٤١)، فالعقل المهتدى يستلهم استدلالاته ويسترشد بما استنار به من نور الشرع .

إن خصوصـــية الفكـــر الإسلامي تتمحور حول التكامل بين العقل والشرع، أو يجـــب أن تكـــون كذلك حتى توافق ما عليه الثقافة العامة والتوجهات الأساسية في البناء الفكـــري في المجتمع يقول الغزالي (مثال العقل البصر السليم عن الآفات والاذاء ، ومثال القـــرآن الشمس المنتشرة الضياء ، فاخلق بأن يكون طالب الاهتداء، المستغني إذا استغنى باحدهمـــا عن الأخر في غمار الأغبياء ، فالمعرض عن العقل مكتفيا بنور القرآن مثاله مثال المـــتعرض لنور الشمس مغمضا للأجفان ، فلا فرق بينه وبين العميان ، فالعقل مع الشرع نـــور على نور والملاحظ بالعين العور لاحدهما على الخصوص متدل بحبل غرور) (٤٢)، فالفلســـفة هـــي أسلوب العقل الذي يزود الإنسان بالوسائل اللازمة لوضع أسس العلم ومـــبادئ النظر ، ويفتح أمامه آفاقا جديدة في مجالات نظره الإلهية والكونية والإنسانية ، وهي الموضوعات التي زودته فيها الشريعة الإلهية بأحكام عامة وتركت للعقل التفرغ لتدبر جزئـــياتها وفروعها في اجتهاد عقلي متواصل تبعا لتواصل الأحداث والوقائع المستجدة ، وقد سخر معظم مفكري الإسلام العقل للنظر والاستدلال في تلك الجزئيان على هدى من تلـــك الكلـــيات السامية ، فكان العقل بذلك خادماً للشريعة ، والشريعة هادية للعقل في تفاعل مستمر ، وان كان ذلك بدرجات متفاوتة بين أهل النظر .

وإذا كـــان العقل النظري يعني ذلك الجهد في التأمل والتحليل مستدلا ومستنبطا للأحكـــام وفقـــاً لنظم محددة ، فان العقل العملي يعني ذلك الجهد المسدد للنفس كي تفعـــل الفعـــل وفقاً لسلوك أخلاقي محدد ، فكلا طرفي قصد الأمور يحتاج إلى تأهيل : الأول يـــتأتى بالتعليم ، والثاني بتأتي بالتأديب ، ويكون بذلك التكامل في العلم والعمل ، وان التجربة الحضارية لا تكتمل إلا بتوفير هذين الطرفين ، ودليل الحضارات شاهد على هذا ، فإذا كانت الحضارات شهدت تقدما فربما يظن بعضهم أن ذلك حصل بفعل جهد عقـــلي نظري محض ، فالأمر غير ذلك إذ أن التقدم كان نتيجة التفاعل بين العقل النظري والعقل العملي ، فلولا القيم الخلقية العملية التي هي أساس إتقان العمل والذي هو أساس النجاح ، لما حصل هذا التقدم.

إن قـــيم الصـــدق ، الإخـــلاص ، الأمانة ، الأمن ، العدالة ، النظام ، الاستقرار ، الوضـــوح ، الشـــعور بأهمية الوقت ، والحقوق والواجبات ....الخ ، هي جميعا والتي على شـــاكلتها ما تعنيه المدينة التي تجعل الإنسان يشعر بكينونته كفرد وككائن اجتماعي ، فهذه القـــيم المســـددة للعقـــل الممثلة لجانب المعاملات في الإسلام هي المكونة للضمير والوازع الداخـــلي (العقل العملي) والقوة الدافعة للعقل النظري علي الإنتاج والإبداع كل في مجاله، هذا ما دعا إليه الإسلام فكان درسا لفلاسفته ومفكريه ولمن تبعهم من أهل الحضارة الحديثة

مكانة الفلسفـــة الإنسانية :

وللفلســـفة دائمـــا دورها المتصدر في تأسيس وبناء الحضارات ، فإذا كان معظم المفكـــرين يؤرخون لبداية التفكير العقلي المنظم للإنسانية مع الحضارة اليونانية فهذا لأنها قدمت فلسفة متكاملة في مجالات كونية وطبيعية وإنسانية ، وقد كان للحضارات السابقة علـــيها أيضـــا فلسفتها النظرية الموجهة لخدمة أغراض عملية دينية تعبر عن رؤى خاصة للحياة والموت ، واستمر دور الفلسفة في العصر الوسيط المسيحي على شكل فلسفة دينية توفيقية تحت سيطرة وتوجيه الكنيسة .

فهـــذه الحضارات جميعاً بما فيها الإسلامية كانت لها فلسفة خاصة اتجهت لخدمة قضـــايا الحق والخير والجمال كل على طريقتها ووفقاً لخصوصيتها وقد تميزت الفلسفة في

هــذه العصور المتقدمة بالاتجاه إلى البحث عن الأساليب الموصلة إلى حياة العدالة والفضيلة في المجـتمع وبلـوغ الـيقين في المعرفة والعلم ، فإذا ما استثنينا قضايا الميتافيزيقا موضع الخـلاف فإننا نجد أنفسنا أمام فلسفة في الحياة والأخلاق وتفسير ظواهر الكون وقضايا الإنسـان الاقتصادية والسياسية والمعرفية هدفها إيجاد الإنسان الأفضل و المجتمع الامثل ، وهـذا هـدف وإن اختلفت وسائله تشترك فيه مع الأديان السماوية جميعاً وفي مقدمتها الدين الإسلامي.

أمـا في الحضارة الحديثة والمعاصرة فإننا نقف على أهمية الفلسفة واحتلالها مكان الصـدارة فـيها فهـي بسبب استنارة العقل الاوربى بفضل كتابات مفكريه ونظرياتهم التجريبـية والعقلـية والاجتماعية ، وهي الدافعة لهذا العقل للنظر والبحث والاكتشاف بفضـل مـا وضعه فلاسفتها من مناهج كانت أساس تقدم هذه العلوم واستمراريتها في تأديـة مهامهـا في الكشـف عن المجهول في مجالات كونية وإنسانية ، والفلسفة الحديثة والمعاصـرة تتشـكل في مدارس فلسفية كثيراً ما تتجه إلى الدفاع عن نظرياتها وقناعاتها العلمـية والسياسية والاقتصادية ، وكثيراً ما تكون معبرة عن الاتجاه العام للدولة التي تتبنى تلك النظريات التي تحولت في العالمين الرأسمالي والشيوعي إلى أيديولوجيا.

وقـد أدرك الغـرب أهمـية الفلسفة في المجالات العلمية والاجتماعية والسياسية والاقتصـادية ، لذلك اتجه إلى أن تطلع معظم العقول عليها وتستوعب مضامينها كلازم من لوازم العلم والفكر ، فصارت مباحثها مقررة في معظم تخصصات الجامعات الغربية .

فكـم يحـتاج العقل العربي الإسلامي إلى علم الكلام (وهو يدخل ضمن مباحث الفلسـفة الإسـلامية) ، الـذي هو على رأي أبن خلدون (يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية والرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السـنة) (٤٣)، ويقول ابن خلدون أيضا بأن (فائدته في آحاد الناس وطلبة العلم فائدة معتبرة ، إذ لا يحسـن بحامل السنة الجهل بالحجج النظرية على عقائدها) (٤٤)، ويقول الغزالي في هـذا الشأن (والآن قد ثارت البدع وعمت البلوى وأرهقت الحاجة فلا بد أن يصير القيام بهـذا العلم من فروض الكفايات كالقيام بحراسة الأموال وسائر الحقوق كالقضاء والولاية

وغيرهـــم ، وما لم يشتغل العلماء بنشر ذلك والتدريس فيه والبحث عنه لا يدوم ، ولو ترك بالكلـــية لأنـــدرس، وليس في مجرد الطباع كفاية لحل شبه المبتدعة مالم يتعلم ، فينبغي أن يكـــون التدريس فيه والبحث عنه أيضاً من فروض الكفايات ، بخلاف زمن الصحابة رضي الله عـــنهم ، فـــان الحاجـــة ما كانت ماسة إليه) (٤٥)، فلعلم الكلام فائدته في الدفاع عن العقـــيدة والســـنة ضد الاتجاهات المنحرفة ، وهذا يعني كما يقول الغزالي (الحاجة إلى سعة الاطلاع والفهم لما يقابل المفكرين المسلمين من أفكار مضادة بما يضمن دحضها وإخمادها) (٤٦)، وكل هذا يستلزم أساليب الحوار وطرق الحجاج والإقناع بالوسائل الجدلية والبرهانية على الطريقة المنطقية ، من هنا تتضح أهمية الفلسفة والحاجة إليها .

ولكن ليست كل الفلسفة تصلح ، فنحن المسلمون لنا خصوصيتنا ، وعلينا اقتناء الأدوات والمناهج والأفكار الخادمة لهذه الخصوصية المكونة للعقل الاسلامى والارتقاء بها إلى ما يحقق طموحات المسلمين وأهدافهم .

الخاتمـــة

يمكنـــنا أن نخلص مما تقدم إلى أن ما شهده المجتمع الإسلامي من تطورات فكرية إنمـــا جاء استجابة لمتطلبات عقدية وشرعية ومواقف فكرية ونزعات سياسية ، تفاعلت جمـــيعا على أرض واحدة وكانت الفلسفة أحد الأركان الفاعلة في هذا الزخم ، والتي لم يكـــن فعلها فيه سهلاً طيعاً وإنما جاء نتاجا لنضالات مشهورة في تاريخ الفكر الإسلامي اصطدم فيها هذا الفعل مع أطراف مقابلة مّثلها خاصة بعض علماء الفقه ورجال السياسة.

وإذا كـــان ذلـــك شأن كثير من الاتجاهات الفكرية الإسلامية فقد شهد بعض أفـــرادها مـــثل هذه النضالات ، إلا أن الأمر مع الفلاسفة المسلمين قد اختلف، ذلك أن الموقف هنا لم يكن ضد أفراد فقط ولا ضد اتجاه داخل أطار علم محدد ، وإنما كان موجها ضـــد الاتجاه الفلسفي برمته بما يتضمنه من موضوعات ومباحث وطرق في النظر كانت كلها وفي مناسبات كثيرة مرفوضة من قبل اتجاهات فكرية واجتماعية إسلامية .

ولكـــن رغم ذلك فقد استطاع فلاسفة الإسلام استناداً إلى بعض فترات تاريخية

لاقـــوا فيها قبولاً خاصة من قبل رجال الدولة القائمة ، واستناداً أيضاً إلى قدراتهم الذاتية في أبـــراز مزايا الفلسفة وفضائلها ، استطاعوا تثبيت اتجاهاتهم ومباحثهم الفلسفية لتحتل مكانهـــا ضمن علوم المسلمين وطرقهم في النظر ، وليساهموا بذلك مساهمة فعالة في التقدم بهذه العلوم والرفع من مستواها نظرياً وعلمياً .

إن جهـــد فلاســـفة الإسلام لم يكن نتاج عقل محض لا علاقة له بالواقع ، وإنما صدر وفقاً لتوجيه ديني وخلقي (واكبر دليل عليه اتجاه هؤلاء الفلاسفة للتوفيق بين العقل والـــنقل ، وقولهم بالعقل النظري والعقل العملي)، فلم ينعزل فلاسفة الإسلام عن واقعهم الإســـلامي ولا يمكنهم الانعزال عنه ، فما كان اتجاههم للفلسفة الاخدمة للدين وعلومه عـــلى طريقـــتهم ، والعمل على حل الإشكالات المترتبة عن مباحث هذه العلوم وطرق نظرها ، فلم تكن الفلسفة ولم يوجد الفلاسفة في المجتمع الإسلامي إلا تلبية لحاجة نقدية تطلبـــتها أحوال الفكر الإسلامي هدفها التقدم بهذا الفكر على مستوى الأسلوب وطرق التفكير والمنهج.

التوصيـــات

مـــا أحـــوج العقـــل الإسلامي في هذا العصر إلى إيجاد هذا التفاعل بين النظر والعمل، حتى يتدارك فترة ركوده التي ما كانت لتكون لولا ما ران عليه بفعل تقزيم دوره وكل انطلاقة له بسبب تشـــدد النقليين ، وان إيجاد هذا التفاعل بين العقل والنقل (النظر والعمل) أمر يحثنا عليه القرآن نفسه بدعوته المستمرة إلى النظر والاستدلال والاستنباط ؛ أي القراءة لهذا الكون الذي خلقه الله وصولاً إلى أعلى المراتب في معرفة قدرة الله .

إن القـــراءة العقلية في خلق الله استدلالاً واستنباطاً تنقل الفكر مما يعلمه في هذا الكـــون إلى ما يجهله ، فيكون العلم ويحصل التقدم ، وبذلك يعلّم الله الإنسان مالم يعلم ، قـــال تعـــالى(إقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، إقرأ وربك الأكرم ، الذي علـــم بالقلـــم ، علم الإنسان مالم يعلم) [٤٧]،ويقـــول تعالى أيضا:

(سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، أو لم يكف بربك أنـــه عـــلى كـــل شـــئ شهيد) [٤٨]، ولا تكون الرؤية الحقيقية لهذه الآيات والدلائل

والعلامـــات عـــلى قدرة الله إلا بالعقل ، ولا يكون بناء هذا العقل المستدل المستنبط إلا بالفلســفة والمــنطق الذي يضع المناهج السليمة في الاستدلال والاستنباط وهذا بشهادة فلاســفة الإســلام ومفكريهم أنفسهم ، ولا يكون أرشاد هذا العقل النظري وتسديده خلقــياً الابالنقل ، وبذلك يتحقق التفاعل بين ركني المعرفة الاسلامية (النظر والعمل) ، ويكون الإنسان خليفة لله في أرضه كما أراد الله له أن يكون .

وانطلاقــاً مـــن كون الفلسفة هي طريق العقل الناظر المستدل والمستنبط كانت لذلــك معينة له على الاكتشاف والعلم بالمجهول ، وباعتبارها كذلك كانت عبر التاريخ أســاس الحضارات ، فلا نكاد نجد حضارة بما فيها الغربية المعاصرة إلا وكانت الفلسفة أساسا وعضداً لها ، ونحن المسلمون إذ نطمح إلى بناء حضاري فانه لن يتسنى لنا ذلك إلا بالفلســفة [٤٩](العقــل) بكل المعاني السابقـــة في جانبهـــا النظري والعملي ، فإننا إن وعيـــنا هذا وضعنا أنفسنا في المسار الصحيح ، ونكون استفدنا الدرس المستنبط من تاريخ الحضارات .

بـــل إننا في وضع يفضل أية حضارة ، ذلك أننا نمتلك الأسس والإمكانيات التي تهـــم كـــل أوجـــه الحياة ، فقط نحتاج إلى عقول قادرة على تنظيمها وفقاً لأسس العلم ومطالـــبه ، وإن إيجـــاد عقول بهذا المستوى وهذه القدرة لن يتأتى ألا بأن تكون عقولاً منطقـــية نـــيرة سليمة تدرك النظر والعمل وتستطيع خلق التفاعل بينهما في أكمل صورة ممكـــنة ، وإن تحقـــق هذا فإنه يكون كفيلاً بتحويل ذلك الكم إلى كيف فاعل قادر على صنع الحضارة .

الهوامش

(١)الكهف ـــ٥٤

(٢) النحل ـــ٥٣

(٣) الانعام ـــ١٦٥

(٤) الزمر ـــ٩

(٥) الزخرف ـــ٣٢

(٦) هود ـــ١١٨ ـــ ١١٩

(٧) الفارابي، الجمع بين رأيي الحكيمين، دار المشرق بيروت، ط ٢، ١٩٨٦، ص ٨٠ .

(٨) نفس المصدر السابق ، نفس الصفحة .

(٩) نفس المصدر السابق ، نفس الصفحة .

(١٠) ابن سينا ، منطق المشرقيين ، دار الحداثة بيروت ، ١٩٨٢، ص ٢٥ــ٢٨

(١١) نفس المصدر السابق ، ص٢٤ .

(١٢) الفارابي، إحصاء العلوم ، تحقيق عثمان أمين، مكتبة الانجلو المصرية،ط ١٩٦٣،٣،ص٦٧ــ ٦٨

(١٣) نفس المصدر السابق ، ص٦٩ .

(١٤) نفس المصدر السابق ، ص ٧١.

(١٥) نفس المصدر السابق ، ص ٧٢ ــــ ٧٣ .

(١٦) الخوارزمي، مفاتيح العلوم، دار الكتاب العربي بيروت، ط ٢، ١٤٠٩، ص ١٥٣ــ ١٥٥.

(١٧) جــلال الدين السيوطي ، صون المنطق والكلام عن فن المنطق والكلام ، دار الكتب العلمية بيروت ، (د .ت) ص ١٥٤ .

(١٨) نفس المصدر السابق ، ص ٣٠ .

(١٩) الغــزالي ، تهافــت الفلاسفة ، تحقيق سليمان دنيا ، دار المعارف مصر ، ط ٦ ، (د.ت) ص ٣٠٨ــ٣٠٩.

(٢٠) أبن خلدون ، المقدمة ، دار الكتاب العربي ، ط٥ ، (د. ت) ، ص ٥١٥ .

(٢١) الفارابي ، إحصاء العلوم ، نفس المصدر السابق ، ص ٥٤ .

(٢٢) الفارابي، تحصيل السعادة، تحقيق جعفر ،آل ياسين، دار الأندلس بيروت،١٤٠١هــ ــ١٩٨١، ص٨٨

(٢٣) نفس المصدر السابق ، ص ٨٧ ــ ٨٩ .

(٢٤) نفس المصدر السابق ، ص ٩٤ .

(٢٥) نفس المصدر السابق ، نفس الصفحة .

(٢٦) أبن سينا ، منطق المشرقيين ، ص ٢١ .

(٢٧) أبن سينا ، النجاة ، دار الأفاق الجديدة بيروت ، ١٤٠٥ ــ١٩٨٥ ، ص ٣٩

(٢٨) أبــن ســينا ، عيون الحكمة ، تحقيق عبد الرحمن بدوى ، وكالة المطبوعات الكويت ، ودار القلم بيروت ، ط٢ ١٩٨٠ ، ص ١٦ ــ١٧ .

(٢٩) أبــن رشد ، فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال ، دار الأفاق الجديدة بيروت ، ط٢ ، ١٣٩٩هـ ــ١٩٧٩ ، ص ١٣ .

(٣٠) نفس المصدر السابق ، ص ١٥ ــ١٦ .

(٣١) نفس المصدر السابق ، ص ١٧ ــ١٨ .

(*) يـتفق أبن رشد في هذا مع الكندي ، انظر : جعفر آل ياسين ، فيلسوفان رائدان الكندي والفارابي، دار الأندلس بيروت ، ١٩٨٠ ،ص ٢٨ ــ٢٩

(٣٢) أبن رشد، فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال، نفس المصدر السابق ، ص ١٨.

(٣٣) نفس المصدر السابق ، ص ١٩ .

(٣٤) العامـــرى ، الإعلام بمناقب الإسلام ، تحقيق احمد غراب ، دار الكتاب العربي القاهرة، ١٣٨٧هـــ ــ١٩٧٦ ، ص ٨٦ ــ٨٧ .

(٣٥) ابن خلدون ،المقدمة ، نفس المصدر السابق ، ص ٤٦٦ ــ ٤٦٧ .

(٣٦) نفس المصدر السابق ، ص ٥١٩ .

(٣٧) نفس المصدر السابق ، ص ٤٥٧.

(٣٨) الغزالي المستصفى في علم الأصول ، دار الفكر بيروت، (د. ت)، ص ١٠

(٣٩) الغزالي معيار العلم ، دار الأندلس بيروت ، ط ٢ ،١٩٧٨ ، ص٢٨ .

(٤٠) ابن خلدون ، المقدمة ، نفس المصدر السابق ، ص ٤٦٦ .

(٤١) أبن سينا ، النجاة ، نفس المصدر السابق ، ص ٣٣٩ .

(٤٢) الفـــارابي، السياسة المدنية، تحقيق فوزي متري نجار ، المطبعة الكاثوليكية بيروت ، ١٤٠٣ هـــ ـــ ١٩٩١ ، ص ٧٥ .

(٤٣) نفس المصدر السابق ، ص ٧٩ـــــــ ٨٠ .

(٤٤) الغزالي ،الاقتصاد في الاعتقاد، دار الكتب العلمية بيروت، ١٤٠٣هـــ ١٩٩١ ، ص٤.

(٤٥) الغـــزالي ، أحياء علوم الدين، تحقيق سيد إبراهيم، جـــ ١، دار الحديث القاهرة ، ١٤١٢ هـــ ـــ ١٩٩٢ ، ص ١٥٨ ــ ١٥٩ .

(٤٦)ابن خلدون ، المقدمة ، نفس المصدر السابق ، ص ٤٥٨ .

(٤٧)نفس المصدر السابق ، ص ٤٦٧ .

(٤٨)الغزالي، المنقذ من الضلال، تحقيق جميل صليبا وكامل عياد،دار الأندلس بيروت، (د .ت)،ص٩٤

(٤٩) نفس المصدر السابق ، نفس الصفحة .

(٥٠) العلق : ١- ٥ .

(٥١) فصلت : ٥٣

(٥٢) لا نعني بالفلسفة تياراتها المخالفة للدين ((الفلسفة الإلحادية) ، وإنما نعني الفلسفة التي تخدم الشريعة وغاياتها ، وفقاً لدعوة أبن رشد في التعامل مع الفلسفة وفقاً لمنهج الانتقاء لما يفيدنا في خصوصيتنا الدينية والثقافية والعلمية .